

في هذا العدد:

- مصادر أسباب نزول القرآن الكريم من الكتب التسعة "صحيح البخاري" أمودجا أحمد فوزي بن حسن، وسيد عبدالمجيد غوري، وذو الحلبي محمد نور، و نور أماني عائشة شمس الدين
- التقدّم الحضاري من خلال القرآن الكريم يوسف محمد حميد أحمد البقرسي
- الكتب المؤلفة في أسباب نزول القرآن الكريم: دراسة وصفية أحمد فوزي بن حسن، وسيد عبدالمجيد غوري، وذو الحلبي محمد نور، و نور أماني عائشة شمس الدين
- انفرادات أبي عبد الرحمن السلمي القرائية: جمعاً وتوجيهاً أمل بنت عبد الكريم محمد نياز التركستاني
- التطبيقات الأصولية على آيات الربا وآثارها: دراسة تحليلية تطبيقية هبة عبدالسلام نونو، وعبدالرحمن عبد الحميد محمد حسانين
- فقه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الزكاة: جمعاً ودراسة أحمد بن حربي ردة المطرفي، وعبدالرحمن عبد الحميد محمد حسانين
- واقع تطبيق استراتيجيات التعلم الذاتي وتحدياته في الجامعات الأهلية العربية الإسلامية: دراسة نوعية بجمهورية بنين من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس الحسن عبد الكريم عبد الله، وموسى جبران العفيفي
- الصيرفة الإسلامية والعملات الافتراضية بين الرؤية الشرعية والتطلعات المستقبلية عابد حمامة، وحبيب الله زكريا، وفهد محمد عباد الشغدري
- الذكاء الاصطناعي ودوره في دعم القرار والفتوى بالمؤسسات المالية الإسلامية: دراسة فقهية تأصيلية تطبيقية على منصة الفتاوى والاستشارات الشرعية بينك البحرين الإسلامي راشد عبدالرحمن أحمد العسيري
- التنمية بين مفهومين: عرض مقارنة لأسس التنمية المستدامة في المنظور الاقتصادي التقليدي والمنظور الاقتصادي الإسلامي وممكناهما في المنظور الإسلامي - الصكوك نموذجاً عبد الله بن سعد البريك، ومحمد بن علي العقلا، وخالد حمدي عبد الكريم
- أدب الداعية في الخطاب مع الذات والآخر: بين النص القرآني والواقع سيف بن سالم بن سيف الهادي
- آثار ظاهرة الإسلاموفوبيا على الأقلية المسلمة في هولندا: دراسة وصفية استثنائية محمد أزيمان، ومحمد السيد البساطي
- البعد القدري للمسجد الحرام وأثره في تعزيز العمل الدعوي: دراسة علمية في الأبعاد الكونية يحيى بن إبراهيم النقي، ومحمد السيد البساطي
- تأثير العقيدة اليهودية في صياغة فكرة المسيح في المسيحية الأولى أنس عبدالرحيم طحان

DOI: <https://doi.org/10.63226/iisj.v10i1.5872>

التقدم الحضاري من خلال القرآن الكريم

[The Advancement of Civilization Through the Noble Quran]

Yousef Mohammed Hamid Ahmed Al-Yfrsy¹

¹ Associate Prof. Dr. in Faculty member, Faculty of Islamic Studies, Department of Qur'an and its Sciences, University of Minnesota - Main Campus - USA.

* Corresponding Author: y9403270862@gmail.com

الملخص

تناولت هذه الدراسة مفهوم الحضارة والتقدم الحضاري، ودور المقاصد الإسلامية الأساسية في تحقيق البناء والتنمية في ضوء القرآن الكريم، الذي يُعد من أهم مصادر المعرفة والهداية للبشرية. وقد أولى القرآن الكريم عناية كبيرة بالجانب الحضاري للأمم والشعوب، ويتجلى ذلك في حديثه عن السنن الإلهية الحاكمة لحياة المجتمعات، واستعراضه لتجارب الأمم السابقة كحضارات عاد وثمود والفراعنة وسبأ، وما آلت إليه من ازدهار أو انهيار تبعاً لالتزامها بالقيم الإلهية أو انحرافها عنها. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكَوْا فَعَلَ رَبِّكَ يَعَادِ ۗ وَإِمَمٌ مِّنَ آلِ مَرْيَمَ ۗ إِنَّهَا أَحْسَنُ مَا أُخْبِرُ ۗ وَأُولَئِكَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَالِدِ ۗ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۗ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي آلِ اللَّهِ ۗ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۗ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لِيَلْمِزِ الْأَعْيُنَ ۗ﴾ [الفجر: 6 - 14]. كما ناقشت الدراسة العوامل المؤدية إلى نشأة الحضارات وازدهارها واستمرارها، والعوامل التي تسهم في تراجعها وانهيارها كما وردت في آيات القرآن الكريم، من خلال إبراز دور القيم الأساسية مثل العدل، والأخلاق، والوحدة، والتعاون، والمساواة في بناء المجتمعات واستقرارها، مقابل أسباب الانحدار كالكفر والظلم والتفرد. واعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي، من خلال الاستقراء الموضوعي للآيات القرآنية المتعلقة بقيام الحضارات وتقدمها وانهيارها، ثم تحليلها تحليلاً سنينياً للكشف عن السنن الإلهية والقيم الحضارية التي تحكم حركة المجتمعات وتطورها في ضوء المقاصد الإسلامية. وخلصت الدراسة إلى أن القرآن الكريم يقدم تصوراً حضارياً متكاملاً يقوم على منظومة من القيم والمبادئ التي تمثل أساساً لنهضة الأمم واستمرار تقدمها، وأن الالتزام بهذه القيم، مثل العدل والأخلاق والتعاون، يُعد سبباً رئيساً في تحقيق التقدم الحضاري، في حين يؤدي الانحراف عنها إلى ضعف الحضارات وتراجعها وانهيارها.

الكلمات المفتاحية: المقاصد الإسلامية، القرآن الكريم، القيم الحضارية، التقدم الحضاري، سنن الحضارات.

ABSTRACT

This study examines the concept of civilization and civilizational progress, as well as the role of the fundamental Islamic objectives in promoting development and societal construction in light of the Holy Qur'an, which represents one of the most important sources of knowledge and guidance for humanity. The Qur'an has given considerable attention to the civilizational dimension of nations and societies, as reflected in its discourse on the divine laws governing human communities and its presentation of the experiences of previous nations such as 'Ād, Thamūd, the Pharaohs, and Saba', illustrating the causes of their prosperity or decline according to their adherence to or deviation from divine values. **Allah Almighty says: "Have you not considered how your Lord dealt with 'Ād? (6) With Iram—who had lofty pillars? (7) The like of whom had never been created in the lands? (8) And Thamūd, who carved out the rocks in the valley? (9) And Pharaoh, the owner of mighty structures? (10) Who transgressed in the lands? (11) And increased therein corruption? (12) So your Lord poured upon them a scourge of punishment? (13) Indeed, your Lord is ever watchful. (14)" (Qur'an 89:6-14).** The study also discusses the factors that contribute to the emergence, development, continuity, and decline of civilizations as indicated in Qur'anic verses, highlighting the role of essential values such as justice, ethics, unity, cooperation, and equality in building stable societies, as opposed to the causes of decline such as disbelief, injustice, and excessive luxury. The study adopts an **inductive-analytical approach**, through the **thematic induction of Qur'anic verses** related to the rise, progress, and decline of civilizations, followed by a **civilizational and Sunnah-based analytical examination** to reveal the divine laws and civilizational values governing the movement and development of societies in light of Islamic objectives. The study concludes that the Qur'an presents a comprehensive civilizational framework based on a system of values and principles that constitute the foundation for the advancement and sustainability of nations. Adherence to these values—such as justice, ethics, and cooperation—represents a key factor in achieving civilizational progress, whereas deviation from them leads to the weakness, decline, and eventual collapse of civilizations..

Keyword: *Islamic objectives, Holy Qur'an, civilizational values, civilizational progress, laws of civilizations..*

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ القرآن الكريم لم يكن كتاب هدايةٍ فحسب، بل قدّم منهجًا متكاملًا للحياة، يُرشد الإنسان إلى أسس البناء الحضاري القائم على التوازن بين متطلبات المادة ومقومات الروح، وبين العلم والقيم، وبين القوة والعدل. وقد وجّه الإنسان إلى عمارة الأرض وفق السنن الإلهية التي تربط التقدم بالأخلاق، وتقرن الاستخلاف بالمسؤولية. كما أكدت آياته أهمية العلم والمعرفة، وإقامة العدل، وترسيخ القيم الأخلاقية، وتحقيق العمران؛ بوصفها ركائز لا غنى عنها لاستدامة الحضارات ورفقيها.

ومن هنا تتبع أهمية هذا البحث الموسوم بـ "التقدم الحضاري من خلال القرآن الكريم"، سعيًا للكشف عن الأسس القرآنية التي تُسهم في بناء حضارة إنسانية متوازنة، قادرة على تحقيق النهوض والاستدامة في ضوء الهدى الرباني.

مشكلة البحث: تتمثل مشكلة البحث في غياب رؤيةٍ منهجيةٍ معاصرة تستنبط السنن الإلهية للتقدم الحضاري من النص القرآني، وتصوغها في إطارٍ مفاهيمي قادر على معالجة إشكالات التنمية والاستخلاف، وتحقيق التوازن بين الجوانب المادية والروحية للإنسان والمجتمع. ويجدر التوضيح أن التقدم الحضاري في هذه الدراسة يُفهم بوصفه إطارًا شاملاً يتضمن تطوير الإنسان والمجتمع في أبعادهما المعرفية، والأخلاقية، والاقتصادية، والاجتماعية، مع تحقيق التوازن بين متطلبات المادة وسموّ الروح وفق المنظومة القرآنية. ومن خلال ذلك يسعى البحث للإجابة عن التساؤلات التالية:

- 1- ما المرتكزات والمقومات الأساسية للتقدم الحضاري في ضوء الآيات القرآنية؟
 - 2- كيف يشخص القرآن الكريم عوامل السقوط والتراجع الحضاري للأمم؟
- أهداف البحث:** يهدف إلى تحقيق أهداف عالية من أهمها:
- 1- بيان أساليب القرآن الكريم في عرضه للحضارات.
 - 2- تقديم دراسة عن التقدم الحضاري من خلال القرآن الكريم.
 - 3- الوقوف على المنهج الأمثل في تقديم حلول للأزمات الحضارية في العصر الحالي، والاستفادة من النصوص القرآنية التي تشكل أساسًا لنموذج حضاري متكامل يحقق التقدم والاستدامة.
 - 4- إفادة الدعاة والمربين والأمة في أخذ الدروس والعبر.

أهمية البحث: يكتسب هذا البحث أهمية كبيرة لعدة أسباب منها:

- 1- كونه يتعلق بكتاب الله تعالى.
- 2- ربط الرقي الحضاري بتوجيهات القرآن الكريم في القديم والحديث.
- 3- الحاجة إلى فهم دقيق للعوامل التي يمكن أن تسهم في بناء حضارة إنسانية قائمة على القيم القرآنية.
- 4- إمكانية استفادة رجال الدعوة والإصلاح في الارتقاء الحضاري في المجتمعات الإسلامية.

منهج البحث: المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يعتمد على:

- 1- استيفاء كل نقطة بصورة شاملة شافية.
- 2- أن تتم الدراسة في ضوء القرآن الكريم، وإسهامات السنة النبوية، وأقوال العلماء الموثوقين والمهتمين بهذا المجال.
- 3- الالتزام بما ورد من إرشادات تخص منهجية كتابة البحث.

الدراسات السابقة:

الكتب والدراسات والبحوث والرسائل عن الحضارة الإسلامية والقرآن والسنة كثيرة جدًا، ولا يسع المقام لذكر كل ذلك، وسأكتفي بالإشارة إلى بعض مما كُتِبَ وقيل عن القرآن الكريم على وجه الخصوص، وعلى طريقة السرد دون تعقيب في ذلك من باب الاختصار، وهي كالتالي:

- 1- أسس الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، للدكتور: حمزة حسن سليمان، مجلة قرانيكا، جامعة ملايا- ماليزيا، العدد الخاص بإبريل 2015م.
- 2- التقدّم الحضاري وتراجع في ضوء القرآن الكريم، لعبد الرزاق مينة نازي، مجلة رواء، العدد (13)، شباط، 2022م.
- 3- حضاراتٌ ذُكرت في القرآن الكريم (عواملُ قيامها وانحيارها)، لسماح جمال البسيوني، وصبحي رشيد اليازجي، الجامعة الإسلامية- غزة، فلسطين، المجلد (30)، العدد (3)، 2022م.
- 4- الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة، للدكتور: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1997م.
- 5- الصراع المادي والروحي بين الحضارات في القرآن الكريم، لإسماعيل عثمان محمد الماحي، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، كلية أصول الدين، السودان، 2009م.
- 6- صعود الحضارات وتداعياتها في القرآن الكريم، لعبير عبد الرحمن يس، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، 1439هـ، 2018م.

- 7- العوامل الاجتماعية والحضارية والانتخابات في القرآن الكريم (دراسة حضارية)، للدكتور: خليل حسن الزركاني، جامعة بغداد، يونيو، 2024م.
- 8- عوامل قيام الحضارات وانحيارها في القرآن الكريم، لأسامة الألفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1.
- 9- مفهوم البناء الحضاري من خلال القرآن الكريم، لمحمد أحمد عثمان النضيف، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، كلية أصول الدين، السودان، 2009م.
- 10- مفهوم العمران في ضوء مقاصد القرآن، للدكتورة: حنان خياطي، جامعة سرت للعلوم الإنسانية، المغرب، 2023م.
- 11- مقاصد القرآن الكريم عند النورسي ودورها في بناء الحضارة والعمران، للدكتور: أردوان مصطفى إسماعيل المزوري، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم- تركيا، المجلد (9) 2018م، العدد (18).
- 12- مقاصد القرآن في بناء الحضارة والعمران عند المعاصرين، للدكتور: ماهر حسين محمد حسن حصوة، إسلامية المعرفة، المجلد (23)، العدد (89)، يوليو، الإمارات، 2017م.
- 13- مقاصد القرآن في بناء الفكر العمراني، للدكتور: عبد المجيد حسن النجار، تونس، 2017م، إسلامية المعرفة، المجلد (23)، العدد (89)، (ص 69-99)، يوليو، الإمارات، 2017م.
- 14- مقال نزل القرآن فأحيا الإنسان وبنى الحضارة، للدكتور: رياض الجوّادي.
- 15- مقومات الحضارة، وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، لعمار توفيق أحمد بدوي، رسالة ماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2005م.
- 16- منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، للدكتور: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر - دمشق، 1412هـ- 1992م.

المبحث الأول: مفهوم الحضارة وأهميتها في القرآن الكريم

المطلب الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للحضارة

قبل التعرف على معنى الحضارة لا بد من معرفة أن مفهوم الحضارة من المصطلحات والمفاهيم الوليدة في العصرين الحديث والمعاصر، ويعاني من إشكاليات كبيرة، لأنها انبثقت من مدارس ومفكرين متخصصين وعلماء في شتى العلوم الإنسانية¹ كما يُعدُّ مفهوم الحضارة من أكثر المفاهيم التي أُخضعت لعملية متواصلة من التلبس والتشويه وطمس الدلالات، على الرغم من أهميته ومحوريته في الدخول في كثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية، سواء باعتبارها المكون الأساس لبنية العلم، أو أنه الغاية التي ينشدها العلم، أو الموضوع الذي يدور حوله².

الحضارة لغة: "من الحضّر والحضرة والحاضرة وهي: خلاف البادية وهي: المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار"³.

ولقد وردت الحضارة في القرآن الكريم لتدل على الشهادة، وهي بالمفهوم الإسلامي لها معانٍ ودلالات لا يمكن تجزئتها، بل تمثل جزءاً أساسياً من مفهوم الحضارة.

الحضارة اصطلاحاً: لم يتفق الباحثون في التاريخ والاجتماع والحضارة على تعريف معين لها، وإنما اختلفت تعريفاتهم تبعاً لاختلاف عقائدهم ومذاهبهم ومدارسهم، وجاء العرب ليقول **بعض منهم إن الحضارة:** "هي عقائد دينية وازدهار اقتصادي وإنجازات إنشائية وأنظمة تشريعية وتضامن اجتماعي، وفق تقاليد وعادات موحدة أو قوى حربية".

ومنهم من عدّها بأنها: "الإنجازات التي تحققت للبشرية أو تحققها البشرية من خلق وسلوك ومعارف".
بينما يراها آخر بأنها: "ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصود، وسواء كانت الثمرة مادية أم معنوية"⁴.

وما سبق يمكن القول بأن الحضارة هي: "عبارة عن منظومة متكاملة من القيم والمبادئ والعلوم والتقدم المادي والمعنوي، التي أشار إليها القرآن الكريم، وعبر عنها في شتى مجالات الحياة، من خلال الدعوة إلى العلم والعمل الصالح والاستخلاف في الأرض، لتحقيق العدل والعمران والتوازن بين الروح والجسد".

1 ينظر: د. عبید، طه خضير، الحضارة العربية الإسلامية، ص 13.

2 ينظر: عارف، نصر محمد، الحضارة الثقافية المدنية، ص 15.

3 ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، لسان العرب، ج4، ص 197.

4 ينظر: عارف، نصر محمد، الحضارة الثقافية المدنية، ص 16.

المطلب الثاني: دور القرآن الكريم في أهمية التقدم الحضاري

لقد نجح القرآن الكريم في أن يبعث حضارةً أمةً ما عُرف لها حضور لافتٌ خارج حدودها في الجزيرة العربية، فإذا بما تُشرق إبداعاً علمياً، وتغييراً اجتماعياً، وإنسانيةً عاليةً في كلِّ العالم.

لقد علّم القرآن الكريم العربَ والمسلمين أن ينظروا فَنظروا، ودعاهم إلى السَّير في الأرض فساروا، وحبَّب إلى نفوسهم التَّعقُّلَ والتَّفكُّرَ والاعتبارَ، والمبادرةَ إلى الفعل، والالتزامَ بالعقود، والسَّيرَ في الأرض، والانكبابَ على العلم، والاستفادةَ من تجارب الأمم، وأعطى حياتهم معنىً جديداً، وأسَّس لهم مشروعاً، ومُهِّمَةً عظيمةً في الأرض، محدِّراً إياهم من الفرقة، ومنقِّراً لهم من الاستبداد (العلو) والفساد. قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ ﴾ [آل عمران: 103]، وقال تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ ﴾ [آل عمران: 104]، وقال تعالى: ﴿ كَتُمَّ خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَرُؤُوسُهُمْ لِلَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: 110]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَنْزَعُوا مَا فَتَقَشُوا وَتَذَهَبَ بِسُحُورِكُمْ ۗ وَأَصِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۗ ﴾ [الأنفال: 46]، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْأَدَارُ الْأَخْرَجَةُ لِيَجْعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۗ ﴾ [الفصل: 83]، تخرَّج العرب من مدرسة القرآن فأبدعوا في وقت قياسي تجرِبَةً حضارية متميِّزة، يُصوِّر "توماس جولدشتاين" بعض ملامحها فيقول: "كان العنصر الأكثر حيويَّةً في تطوُّر العلم الإسلامي هو هذا الطابع الكوني للثقافة التي أرساها العرب، وأثبتوا أنهم أساتذةٌ في نسج كل الخيوط الثقافية المختلفة في نسيج ثقافي جديد، وتماسكت الحضارة الجديدة بواسطة لغتهم المشتركة، وإيمانهم المشترك، وطريقة حياتهم المشتركة"¹.

لقد نجح القرآن الكريم أن يصنع عقلاً عربيًّا شغوفًا بالمعرفة متطلعًا إلى أسرار الكون وسننه، حتى أضحى العرب أساتذةً في هذا المعنى، ولقد كان مما تعلَّمته العصور الوسطى من الإسلام هو هذا الابتهاج بتنوع تفاصيل الطبيعة واستخداماتها من أجل المجتمع، وتأثير هذا الالتقاء اتخذ الغرب الخطوة نحو غرس العلوم المتخصصة انطلاقاً من اللبِّ الفلسفي الأصلي، فكلَّ علم متخصص على حدة في الغرب يدين بأصوله إلى الدافع الإسلامي، أو على الأقل باتجاهه منذ ذلك الوقت فصاعداً²، وكيف لا يُضحى هذا الشَّغف بتنوع تفاصيل الطبيعة، وآيات التَّظَر في كلِّ شيء في الكون بالعشرات من الآيات، فضلاً عن آيات التَّعقُّل، والتَّفكُّر، والاعتبار، فهي بالمئات. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ ﴾ [يونس: 101]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۗ ﴾ [ق: 6]، وغير ذلك من الآيات. فعلى ضفاف هذا القرآن وُلد عقل تشريعي لم يشهد تاريخ البشرية مثله إلا قليلاً، وتُثبت صروحٌ من التشريعات، والقواعد، والأصول، والمقاصد، وهي التي أشاد بها "فون كريبم" في قوله: "لا تستطيع أمةٌ غير العرب أن تصف

1 شتاين، توماس جولد، ترجمة: أحمد حسان عبد الواحد، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ص 112.

2 المصدر السابق ص 116.

نظامها التشريعي بأنه وُضع في دقة وعناية¹.

كما نصح القرآن الكريم في أن يهب المجتمعات المسلمة ذائقةً فنيةً عزَّ نظيرها، ففي مدرسته تعلّم المسلمون، كلّ المسلمين، معنى "التغني" و"التفنن" في الأداء، وفيها تعود الجميع تذوق الصوت الجميل وهو يتلو الآيات البيّنات، وحوله أبدعت يدُ البراعة لوحاتٍ رائعةً تزين صدرَ مجالسنا ومساجدنا، وفي أحضانه وُلدت مدارس للخطّ العربي ممّا لا تجد له نظيراً في حضارة أخرى، وبسببه حقق العرب والمسلمون "أصالةً فنيةً" لم يتجاوزهم فيها أحدٌ (حضارة العرب)².

وفي مثل ذلك أيضاً نصح القرآن الكريم في أن يوحد اللسان الرسمي للأمة مع احترامه لكلّ الألسنة، ويحفظ العربية لغةً هي إحدى أكثر اللغات انتشاراً وفعاليةً بحكم الواقع الديني على الأقل، فالأمر ما زال مستمرّاً مادام القرآن بقوته المعنوية والفكرية حاضراً فينا، راعياً لخطابنا، وحارساً لفعالية لغتنا وضميرنا.

إنجازاتٍ في كلّ المجالات: الإنسانية والنفسية والاجتماعية والفنية والمعمارية والعلمية، ونجاحاتٍ لا تعرف حدّاً، ولا يُنكرها إلاّ جاحد أو جاهل، ذلك تاريخ القرآن بيننا، وتلك أفعاله فينا، وإذا كنّا قد تخلفنا بعد تقدّم، أو تشرّدنا بعد وحدة، أو وهنّا في أعين خصومنا بعد عزة، فلأنّنا غيرنا ما بأنفسنا وأعرضنا عن أسباب مجدنا، ونسينا مشروعتنا ورسالتنا، فحقّ علينا قول ربنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وبنفس القانون يُمكن أن نستعيد ما فرطنا فيه من الفعالية الحضارية، أمّا اليأس والأحزان والانفعال السلبي فليست مما يُمهّد للأجناد في شيء³.

وخلاصة القول: "إنّ القرآن الكريم مصدرٌ للإلهام والتوجيه للمسلمين، وهو يدعو إلى التقدم الحضاري والاجتماعي، من خلال التأكيد على أهمية العلم، والمعرفة، والعمل، والعدل، والتشجيع على بناء مجتمعات مزدهرة ومتقدمة".

1 اللاهوري، محمد إقبال، تحقيق: عباس محمود، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص 172.

2 ينظر: د. الجوّادي، رياض بن علي، مقال نزل القرآن فأحيا الإنسان وبنى الحضارة.

3 المصدر السابق.

المبحث الثاني: عوامل قيام الحضارات وانهارها من خلال القرآن الكريم

المطلب الأول: أسباب التقدم الحضاري

القرآن الكريم ذكر أسباب التقدم الحضاري بشكل مباشر وغير مباشر من خلال القصص، والأوامر، والنصائح التي تدعو للتفكير والعمل، والجامع المشترك لمختلف المفاهيم السياسية، والاقتصادية، والتاريخية للحضارة هو الاستقرار، كما تعبر الحضارة عن حاجة إنسانية تميز الإنسان عن غيره من الكائنات؛ وأن العوامل التي تحكم قيام الحضارات وانهارها (سنن) معينة تتسم بالثبات، وهذا ما تنبّه إليه المفكرون المسلمون، فانكبوا على دراسة المنهج القرآني في التعامل مع التاريخ البشري، وسعوا إلى الانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، والتاريخية. كذلك لا يتصور الإسلام أن القوى الاقتصادية أو المادية وحدها يمكن أن تُحدث تغييراً، أو تحولاً في المجتمع البشري، إنما تغيير ما في نفس الإنسان هو العامل الحاسم الذي يتجلى فيه التغيير الذي يحدثه في ظروف البشرية الخارجية. ومن خلال ذلك يمكن القول بأن أهم أسباب وعوامل التقدم الحضاري ترجع إلى ما يلي:

أولاً: العقيدة والإيمان بالله: إن اللبنة الأساسية في بناء الحضارة هي العقيدة، والإيمان بالله، وتوحيده لأنه المبدأ الذي تنبثق عنه كافة المفاهيم والقيم التي تمنح الحضارة الإسلامية هويتها، فلا حضارة دون عقيدة وإيمان تدفعها وتغذيها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

ثانياً: الإنسان:¹ اعتنى القرآن الكريم بالإنسان وتأهيله ليكون صانع الحضارة التي تمتد إلى آفاق رحبة متسعة؛ وحرص على تعريفه أن جميع البشر متساوون، بغض النظر عن اللون، أو الجنس، أو العقيدة، وأكد أن يكون مطمئن القلب، راضي النفس، متفائل الروح، لا ييأس، وإن سُدت في وجهه الأبواب، وأُغلقت أمامه السبل، وتقطعت دونه الأسباب، موقناً بأن مع العسر يسراً، وأن بعد الليل فجرًا، وبعد الضيق فرجًا، وبأنه: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَّبِّكَ إِلَّا الْقَوُّمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، ولا ﴿يَقْتَضِ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56].

ثالثاً: القيادة الرشيدة الجامعة بين صفات الجسد والفكر: هي قيادة يتمتع صاحبها بالتوازن بين العقل والجسد، فلا يغلب عليه ضعف بدني يُفقد تأثيره، ولا قصر نظر فكري يُفقد البصيرة؛ بل يكون قوياً في جسده، راجحاً في عقله، مما يجعله مؤهلاً لحمل مسؤولية القيادة، والتأثير في الناس، وتحقيق الأهداف بروية وقوة. وهذه القيادة حدثنا الله عز وجل عنها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، ففي أثناء حديثه عن طالوت عندما اختاره الله ملكاً على بني إسرائيل، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسَدِ وَاللَّهُ

1 ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 19، وينظر: النعيمي، عبد الله محمد الأمين، الحضارة الإسلامية: المفهوم، العوامل، الأسس، التّظُّم، ص 21 - 30.

يُؤْتِي مَلِكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: 247]، وقال عن نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام عندما طلب من الملك أن يُؤكله على خزائن مصر، ولم يفعل ذلك بدافع الجاه أو المنصب، بل لأنه رأى أن لديه المؤهلات الحقيقية لإنقاذ البلاد من المجاعة القادمة. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: 55]، فإن القيادة الناجحة لا تُبنى بالعلم أو الورع أو القوة وحدها، بل تتطلب قائدًا قُدوةً في قوته، ورمزًا في حكمته، وصاحب مهارة إدارية، وبعد نظر، وقدرة على إدارة الموارد وتحقيق الصالح العام.

رابعًا: العلم: قد اتسم النهج القرآني في دعوته المؤمنين إلى الأخذ بأسباب العلم بالشمولية، والعلو فوق المتغيرات النسبية؛ ليناسب كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: 9]، وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: 11]، ومن هنا تتميز آياته بتوجهين: **الأول:** دعوة الإنسان إلى التفكير في آيات الله في الكون، والنظر فيها؛ بل النظر في نفسه، **والثاني:** الإشارة إلى الحقائق العلمية¹.

خامسًا: العدل والمساواة: هو قوام الحضارة، وسبب من أسباب بقائها. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ عَلَيْهِ النَّهْيُ﴾ [النحل: 90]، وقد أكد ابن خلدون² ذلك فقال: "واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم؛ وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة"³.

سادسًا: الأخلاق: القرآن الكريم يُعدُّ كنز الأخلاق، ومستودع جواهرها، ومبعث فضائلها ومحاسن خصالها⁴؛ فهو يهذب الأخلاق التي تُبنى عليها الحضارات، ولا يعلّق بذاكرة الزمان منها سوى تلك الشمائل

1 ينظر: الألفي، أسامة عمر أحمد، عوامل قيام الحضارات واختيارها في القرآن الكريم، ص 60 وما بعده، وينظر: د. عويس، عبد الحليم عبد الفتاح محمد، الحضارة الإسلامية: إبداع الماضي وآفاق المستقبل، ص 20 وما بعده.

2 أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن خلدون الحَضْرَمِيُّ الإِسْبِيلِيُّ الشهير اختصارًا بـ «ابن خَلْدُون»، وُلِدَ فِي تُونِسَ زَمَنِ الدَّوْلَةِ الحَفْصِيَّةِ، 1 رَمَضَانَ 732 هـ، 27 مَآيُو 1332 م، وَنَشَأَ عَلَى تَرَاثِ أَسْرَةِ عَرِيقَةَ بِالعِلْمِ؛ عَالِمٌ مِنْ عِلْمَاءِ العَرَبِ وَالإِسْلَامِ بَرَعَ فِي كَثِيرٍ مِنَ العِلْمِ مِنْهَا عِلْمُ الاجْتِمَاعِ وَالفَلَسْفَةِ وَالاِقْتِصَادِ وَالتَّخْطِيطِ العِمْرَانِيِّ وَالتَّارِيخِ وَغَيْرِهَا، مِنْ مَوْلاَفَاتِهِ: لُبَّابُ المُحْصَلِ فِي أَصُولِ الدِّينِ، وَشِفَاءُ السَّائِلِ وَتَهْذِيبُ المَسَائِلِ، وَتَارِيخُ ابْنِ خَلْدُونِ، وَالعَبْرُ وَدِيَوَانُ المَبْتَدَأِ وَالحَبْرُ فِي أَيَّامِ العَرَبِ وَالعَجْمِ وَالبَرْبَرِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الأَكْبَرِ. تَوَفَّى فِي القَاهِرَةِ، زَمَنِ الدَّوْلَةِ المَمْلُوكِيَّةِ فِي 28 رَمَضَانَ 808 هـ، 19 مَارِسَ 1406 م عَنْ عَمْرٍ (73 وَقِيلَ 76 سَنَةً). يَنْظُرُ: عَزْرُوزُ، عِبْدُ النَّاصِرِ الهَاشِمِيِّ، وَالسَّعِيدِ، فَكْرُونِ، حَقِيقَةُ عِلْمِ العِمْرَانِ البَشَرِيِّ عِنْدَ ابْنِ خَلْدُونِ، ص 211، وَالأشْعَبُ، خَالِصُ حَسَنِي، ابْنُ خَلْدُونِ رِيَادَةُ عَرَبِيَّةِ أَصِيلَةٍ فِي التَّخْطِيطِ المَدِينِيِّ وَالإِقْلِيمِيِّ، ص 315-352، وَعَنَّانُ، مُحَمَّدُ عِبْدَ اللهِ، ابْنُ خَلْدُونِ: حَيَاتِهِ وَتَرَاثِهِ الفِكْرِيِّ، ص 15.

3 ابن خلدون، عبد الرحمن بن مُحَمَّد الحَضْرَمِيُّ، العَبْرُ وَدِيَوَانُ المَبْتَدَأِ وَالحَبْرُ فِي تَارِيخِ العَرَبِ وَالبَرْبَرِ وَمَنْ عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي الشُّأْنِ الأَكْبَرِ، تَحْقِيقُ: خَلِيلُ شِحَادَةَ، ص 356.

4 ينظر: دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، تحقيق: عبد الصبور شاهين، ص 96، وينظر: د. زقزوق، محمود حمدي، الحضارة فريضة إسلامية، ص 24.

الحميدة، والأخلاق الفاضلة، جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»¹.

سابعاً: العوامل الاقتصادية: لا يمكن قيام حضارة دون توافر مقومات مادية تُعين على قيامها، وتنظيم تشريعي يحول دون اكتنازها لصالح قلة أو فئة، وحرمان القاسم الأعظم من البشر من الاستفادة من خبراتها، ومن هذه المقومات ما حدثنا القرآن الكريم به عن الزكاة، والتكافل، والتجارة، والإنفاق، كلها لضمان اقتصاد عادل ومستدام.

ثامناً: النظام السياسي والإداري: فهو أول ملمح في نهج القرآن الكريم يدعو لتنظيم أمر الولاية، وانطلاقاً من اعتبارها مسؤولية عظيمة، لا ينبغي أن يتصدى لها إلا القادر على أعبائها، فليست تشريعاً، وإنما عبء وتكليف، وهي تتحقق بمبايعة سائر المسلمين لولي الأمر مباشرة، أو بتوكيل آخرين ليباعوا عمن لا تمكنه ظروفه من الحضور والمبايعة؛ والولاية -بحسب النهج القرآني- تعد نظاماً سياسياً راقياً، يحقق للمجتمع العدالة والمساواة والاستقرار.

تاسعاً: التعارف والتعاون بين البشر: يدعو القرآن الكريم إلى مبدأ تعارف الحضارات لا تصادمها، ففي أكثر من آية يؤكد لنا القرآن الكريم مبدأ الوحدة الإنسانية في المنشأ والميلاد، داعياً إلى إقامة جسور من التعارف والتعاون بين البشر باعتبارهم جميعاً جاءوا من أب واحد، وأم واحدة؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وتعارف الحضارات يؤدي إلى تألفها وتعاونها، ويفضي إلى الوثام، ويثري الفكر الإنساني، ويلبي حاجات البشر المختلفة؛ وذلك على عكس العولمة التي تعني فناء خصوصية الحضارات داخل حضارة واحدة معينة.

عاشراً: رسم ملامح أساسية للمجتمع المسلم: لقد اهتم النهج القرآني اهتماماً كبيراً برسم ملامح أساسية للمجتمع المسلم، تساعده على الاستقرار، وبناء كيانه الحضاري، الذي تتوافر له المبادئ، والقيم القرآنية الخالدة مثل: التوازن، والحركية، والتطور بوجوهه المختلفة، بما يلي مطالب الإنسان الحياتية، ويزكي نزعتة، التي ترفض تصنيف الإنسان على أساس عرقي، أو طبقي، أو مذهبي، وتساوي بين البشر في الحقوق والواجبات، فلا يتميز أحدهم على الآخر إلا بتقوى الله. وقد أولى القرآن الكريم للأسرة جل اهتمامه؛ لأنها خلية المجتمع الأولى، وأطرّ علاقاتها على أساس توازن دقيق، من خلال رابطة الزواج، التي هي أسمى ألوان ارتباط البشر، والتي وصفها القرآن بـ

1 الشيباني، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مسند الإمام أحمد بن حنبل ج14، ص513، مسند المكثرين من الصحابة، رقم 8952.

(الميثاق الغليظ). قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 21]¹.

والخلاصة: القرآن الكريم ليس فقط كتاب هداية، بل أيضاً دليل لبناء حضارات قوية، ومستدامة، والحضارة الحقيقية تقوم على القيم، الإيمان، والعمل.

المطلب الثاني: أسباب التراجع والسقوط الحضاري، وخاصة في العصر الحديث

هناك الكثير من العوامل التي أدت إلى سقوط حضارات سابقة، كانت مزدهرة في زمانها، حضارات كانت ملء السمع والبصر، لكنها لم تستطع أن تحافظ على بقائها وازدهارها، ومثل ما كانت هذه العوامل سبباً في قيامها، كُتبت لها أن تكون سبباً في سقوطها أيضاً، فالسقوط لا يأتي من الخارج غالباً، لكنه يجيء من داخل الحضارة نفسها، وقد أبرز القرآن الكريم أهم هذه العوامل، ويمكن تقسيمها إلى محورين رئيسيين:

أولاً: الأسباب العقيدية: وترتبط بالبعد الإيماني والمعتقدي للأمة، وتشمل:

الكفر بالله تعالى: إنّ سلسلة تفكك عُرى الحضارة الذي قد يصل إلى انهيارها، يكمن أساساً في لب العقيدة الفاسدة المحركة لعجلة الحضارة، وما يتفرع عن هذه العقيدة من تصورات، ومفاهيم منحرفة، وأما حضارة قامت على الكفر هي في الحقيقة تحمل سبب انهيارها، وعامل أفولها. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرًا كَبِيرًا فَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ رَبِّهِمْ فِي يَوْمٍ فَجِيعٍ ﴿٩١﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 59 – 60]².

ثانياً: الأسباب السننية والاجتماعية: وترتبط بسلوك الإنسان والمجتمع، وتشمل:

1- انهيار المنظومة الأخلاقية في المجتمع: يقرر القرآن الكريم أن ظهور المعاصي، وانتشار الفواحش في المجتمعات، وتفشيها في كل الأماكن مع سكوت الناس عن تغييرها سبب من أسباب الهلاك والسخط، وقد ذكر القرآن الكريم نماذج ممن أهلكتهم الله تعالى بسبب تفشي الفواحش، وظهور الفساد، كقصة قوم لوط عليه الصلاة والسلام بسبب انحلالهم الأخلاقي، وشذوذهم الجنسي فحسب الله بهم الأرض³.

2- الظلم: أبشع صورة تبرز فيها الحضارة الآيلة للسقوط، ويعجل سيرها إلى مدفنها، وطبها من الوجود، ولهذا حفل القرآن الكريم بتبشيع الظلم، وبيان آثار الظلم على الحضارة، لأنه قرين الكفر، فعبر بالظلم عن الكفر، وليس بعد الكفر ذنب، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَسُوا أَنْفُسَهُمْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا

1 ينظر: الألفي، أسامة عمر أحمد، عوامل قيام الحضارات وانهيارها في القرآن الكريم، ص 122 وما بعده.

2 بدوي، عمار توفيق، مقومات الحضارة، وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، ص 112.

3 النعيمي، عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية، ص 98.

شَقَعَهُ وَالْكُفْرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ [البقرة: 254] ، وإن دلّ هذا التعبير على شيء؛ فإنما يدلّ على عميق أثر الظلم في اجتثاث الحضارة الظالمة من الوجود، وإراحة كاهل الحياة من أعباء ظلمه، والعرض القرآني قد أكد أنه هو العامل الرئيس في دفع نجم الحضارة إلى الانهيار.

3- الفساد الاقتصادي: يُعتبر الفساد الاقتصادي من أخطر الأسباب التي تؤدي إلى انهيار المجتمعات وسقوط الحضارات، لأنه يضرب في صميم الاستقرار الاجتماعي والعدالة المالية، ويؤدي إلى احتكار الثروات بيد فئة قليلة، وإفقار فئات واسعة من الناس، وزعزعة الثقة بين الأفراد والدولة، وشيوع الظلم، والغش، والتلاعب في المعاملات، وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا الخطر من خلال نموذجين قرآنيين واضحين، هما:

أولاً: سورة المطففين: الفساد في الميزان والتطفيف. قال تعالى: ﴿ وَيَلُّ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ وَإِذَا كَالُهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿ [المطففين: 1 - 3].

ثانياً: قصة شعيب عليه الصلاة والسلام: الفساد التجاري والاحتكار. قال تعالى: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿ [الشعراء: 181-183]. فإذا سقط هذا الركن المهم، تسقط كافة أركان المجتمع الأخرى الواحد بعد الآخر¹.

4- الترف: مظهر من مظاهر الحضارة، وهو يدلّ في بعض مواطنه على ازدهارها، وقوتها، وفي المقابل يُعدّ الترف سوسة؛ إذا نخرت في هياكل الحضارة، خرت سُفُفُهَا على الأرض، وتهاوت أعمدتها، بلا قرار، فالترف فيه طغيان، وبطر، وفتح لأبواب الملذات، والشهوات.

والخلاصة: إنّ القرآن الكريم مليء بالعبر عن أسباب سقوط الحضارات السابقة، والله سبحانه وتعالى ذكر العديد من عوامل سقوط الأمم في كتابه الكريم، مما يجعلها دروساً عظيمة للبشرية لتجنب الأخطاء نفسها، وقد لخص سبحانه وتعالى الأسباب بقوله: ﴿ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَصْغُرُوا عَلَيَّ أَعْيُنُهُمْ أَفِئَّةً وَيَعْمُرُوا فِي صُدُوقِهِمْ نَسْتِمْسِكُهُمْ أَصْحَابِ السُّعُورِ ﴿ [الأنفال: 53]، والتغيير الداخلي، سواء بالسلب أو الإيجاب، هو مفتاح استمرار الحضارة أو سقوطها.

1 الألفي، أسامة عمر أحمد، عوامل قيام الحضارات وانحيارها في القرآن الكريم، ص 123.

المبحث الثالث: الخصائص والمقاصد والمجالات التي تصنع الحضارات والعمران

المطلب الأول: خصائص الشخصية التي تصنع الحضارة (رؤية قرآنية)

إن أمة المسلمين تعاني من تحديات ضخمة تنبعث من داخلها، وتواجه في طريقها عقبات كثيرة تنجذب إليها من خارجها، وتتضافر جميعها لمنعها من التقدم نحو الأمام، ومن المؤكد أن الخلل يكمن في الإنسان نفسه، ومن ثم فإن أعداءه وخصومه يذهبون به حيث شاءوا لا حيث يشاء هو، فهو لا يمتلك رؤية حضارية شاملة ولا خططاً كاملة للنهوض، مما جعله مسلوب الإرادة غائب الوعي، ولذا سنسعى في هذا المطلب للمساهمة في معالجة هذه الفتوق البارزة في تركيبة الشخصية المسلمة، من خلال العودة إلى القرآن الكريم للبحث في صفحات هداياته عن الخصائص، والعوامل التي تجعل الشخصية المسلمة قادرة على مغادرة قيعان الغنائية والوهن إلى قمم الفاعلية، وصناعة الحضارة من جديد. ويمكن إبراز هذه الخصائص من خلال ما يأتي:

أولاً: الانطلاق من الرؤية التوحيدية الشاملة: حرص القرآن الكريم على غرس التصور التوحيدي في العقل الإنساني منذ الوهلة الأولى، عندما قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ [العلق: 1 - 2] ، فينبغي أن يتعاقب الوحي والعقل، وأن تتكامل الروح والمادة، وأن يتضافر عالم الغيب مع عالم الشهادة، وذلك ضمن مشيئة الله الشرعية، وإرادته الكونية التي تجسدها السنن والنواميس. قال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۝ [هود: 61] ، ويجب أن يتحقق ذلك بطريقة متوازنة بحيث لا ينفك العلم عن الإيمان، ولا ينفصل العقل عن النقل، ولا ينفصم التسبب عن التوكل.

ثانياً: إعمال كافة المدارك العقلية؛ وعشق المعرفة المتكاملة: لقد دعا القرآن الكريم إلى استخدام المدارك العقلية للإنسان بقسميها الحسي والعقلي، بحيث يصل إلى اليقين والطمأنينة، ويتعد عن الظنون والأوهام، وذلك من خلال آيات كثيرة دعت إلى تفعيل السمع والبصر والعقل¹. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝ [الإسراء: 36]، فمن يقرأ آيات القرآن الكريم يجد أن العلم والفكر قد احتلا مساحة واسعة فيها، فهناك قرابة سُدس آيات القرآن الكريم تتحدث عن التفكير ومشتقاته، وهناك مئات الآيات القرآنية كذلك التي تحدثت عن قيمة العلم من مختلف الجوانب²، وهذا ما فهمه وعمل به السلف الصالح، ولا سيما في قرون الخيرية الأولى، فقد قامت أفهامهم على التكامل المعرفي بين علوم الوحي (الكتاب المسموع)، وعلوم الطبيعة (الكتاب المنظور)، فبرز العلماء في كل أصناف المعرفة، وظهر أعلام كبار في كل صنوف العلم، فقد كان العالم الواحد يجيد علومًا عديدة تبدو لأول وهلة كأنها متناقضة أو متباعدة على الأقل، وتجد أحدهم موسوعة

1 ينظر: د. العجمي، أبو اليزيد أبو زيد، الحضارة الإسلامية وجهة جديد، ص 27 - 36.

2 ينظر: د. الشكعة، مصطفى محمد، الحضارة الإسلامية جوهرًا وعطاء، ص 89 - 100، وينظر: د. القرضاوي، يوسف عبد الله، العقل والعلم في القرآن الكريم، ص 31 - 51، وقد أوضح مدى غناء القرآن بأصول ومناهج التفكير والتعلم وبعض مفرداتهما في القرآن من خلال كتابه القيم.

علمية شاملة، وفي ذات الوقت يفقه سنن الله الكونية، وسننه الاجتماعية، ويقدم فقهاً جديداً في قيام الدول وسقوطها، أو تجد فيلسوفاً يتكئ في أفكاره على الرؤية القرآنية للكون والإنسان والحياة! فنشأت الجامعات، والمعاهد، والمدارس العملاقة في معظم بلدان المسلمين، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة في المدن الإسلامية في مختلف حقول العلم¹، ومع هذا التقدم كله فقد حصل انفصال السلطان عن القرآن في عهد مبكر إلا أن القطيعة التامة لم تحدث إلا في فترة متأخرة.

ثالثاً: الدّأب السّبيي واستثمار السنن: لقد جعل الله الأرض ذلولاً وأودع فيها خيرات العمارة وأمر الإنسان أن يقوم باكتشاف طاقاتها وعمارها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهَا وَإِلَيْهِ أَلْتُشُّورُ﴾ [الملك: 15]، ومما لا شك فيه أن الشخصية التي تصنع الحضارة ستكون على قدر كبير من معرفة السنن والنواميس، وعلى مقدرة كبيرة في التعامل مع الأسباب واستثمارها في عملية التغيير والتطوير، وإن من عجائب التخلف الذي يتردى فيه المسلمون في هذا العصر أن كثيرين يتعللون بالأقدار لتبرير تقاعسهم عن العمل وقعودهم عن تغيير أوضاعهم، وهناك من اعتبروا رضاهم بالدونية صبراً يستحقون بموجبه الجنة، زاعمين أن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»² دون وعي بهذا الحديث، وأن الله سيعوضهم عن زهدهم بالدنيا بجنّته الأخروية، وقد ساهم هذا الفهم الانسحابي في تردي المسلمين، وفي سقوط الحضارة الإسلامية من عليائها³، ويُردُّ على مثل هؤلاء المتعللين بأية واحدة تربط التمكين الحضاري بقيمة الإيمان والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَيَمَلُؤُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]، فبعد ذكر النتيجة في الآية عادت للحديث عن العبادة الخالصة من شوائب الشرك، كأنها تدعو المؤمنين لاستحضار روح التعبّد وهم يعملون في صناعة الحياة، وهذا هو المضمون.

رابعاً: استحضار روح التّعبد في عمارة الأرض وصناعة الحياة: إن المساحة المكانية للعبادة تتسع للأرض كلها، أما من الناحية الزمانية فإن العبادة تستوعب الزمان كله. قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: 52]، فبهذا الشمول الزماني والمكاني تتحقق الغاية العظمى من خلق الإنسان ﴿وَمَا

1 ينظر: د. الشكعة، مصطفى محمد، الحضارة الإسلامية جوهراً وعتاء، ص 101 – 318.

2 النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث 2956، والترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، تحقيق: بشار عواد معروف، الجامع الكبير - سنن الترمذي، رقم الحديث 2324.

3 ينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، بوارق الفكر، ص 61.

حَلَقَتْ الْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ وَالْجَنَّةَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴿ [الذاريات: 56] ، ذلك أن العبادة الكونية لا وقت لها ولا فراغ منها، فكلما فرغ المؤمن من شيء من مفرداتها انتقل إلى مفردة أخرى، مع عدم نسيان العبادة الشعائرية، وابتغاء وجه الله بكل علم وعمل، ومن المصائب التي أصابت العقل المسلم في عصور التراجع الحضاري الانفصام بين حقوق الله الخاصة، وبين حقوق الإنسان، فخلقت هذه المعضلة نوعاً من العلمانية المقنعة في حياة كثير من المسلمين الذين حصروا العبادة في دائرة الشعائر التعبدية¹.

خامساً: الاستثمار الأمثل للوقت: الوقت عنصر نفيس وكنز ثمين، وهو الوعاء الذي يحتوي الأنشطة العبادية في محراب الحياة، ولأنه كذلك فقد وجدنا آيات من القرآن الكريم تجعل له قيمة كبيرة تنويهاً بشأنه، وتعظيماً لقيمته، وإبرازاً لدوره في القيام بواجبات الاستخلاف وصناعة الحياة². قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿ [النبا: 10 - 11] ، وقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿ [العصر: 1 - 3] ، وقد سمى الله عددًا من سور القرآن الكريم بأسماء أوقات: الفجر، الجمعة، الليل، الضحى، العصر، إضافةً إلى سور بأسماء ظواهر ذات علاقة بتحديد الوقت، مثل: الشمس، القمر، النجم، الإسرائ، النور³ ، فمن يتمن ملياً في هذه السور والآيات سيلحظ بوضوح إدراك مدى قيمة هذا الكنز الذي لا يعرف قيمته كثير من الخلق، ومن يقرأ قصص علماء المسلمين الذين أبدعوا في إنتاج العلوم والفنون والآداب، وأهدوا أمتهم معادلات العروج الحضاري؛ سيجد أن استثمارهم للزمن كان شديد الوضوح في ترتيبهم لأوقاتهم، وفي شدة المحافظة عليه من الغفلة والبطالة والعبث، ومن آفات الفراغ والسّفه وسفاسف الأمور⁴.

سادساً: الترقّي الأخلاقي والانضباط السلوكي: الأخلاق مهمة وضرورية في تحقيق العروج الحضاري. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿ [الأحزاب: 21] ، وقد احتلت مكانة شديدة الأهمية في المنظومة الإسلامية للنهوض الحضاري، وإذا كان الإسلام دوحة عظيمة وخميلة مثمرة فإن الأخلاق هي ثمارها المتدلّية، والمعاملات هي قطوفها الدانية⁵ ، غير أن الأمية الفكرية التي أصابت المسلمين عند الابتعاد عن تدبر قرآنهم سببت لهم الكثير من المشاكل، ومنها ضيق دائرة الوعي، والتي انعكست بدورها على ضيق دائرة الأخلاق والقيم،

1 ينظر: النعيمي، عبد الله محمد الأمين، الحضارة الإسلامية: المفهوم، العوامل، الأسس، التّظّم، ص 115 - 122، وينظر: د. السامرائي، نعمان عبد الرزاق صالح، نحن والحضارة والشهود، ج1، ص 101 - 111.

2 ينظر: د. القرضاوي، يوسف عبد الله، الوقت في حياة المسلم، ص 12 - 25، وينظر: د. العجمي، أبو الزيد أبو زيد، الحضارة الإسلامية وجهة جديد، ص 43 - 48.

3 د. البناء، فؤاد عبد الرحمن محمد، مباحث في الثقافة الإسلامية، ص 164.

4 ينظر: الحنفي، عبد الفتاح أبو غدة الحلبي، قيمة الزمن عند العلماء، وينظر: د. البناء، فؤاد عبد الرحمن محمد، بوارق الفكر، ص 46، 36.

3 ينظر: د. البناء، فؤاد عبد الرحمن محمد، بوارق الفكر، ص 85.

حتى إنَّ معظم الأخلاق الاجتماعية خرجت من دائرة أخلاق المسلمين؛ مما غيَّب أخلاق العدل والحرية والتعاون والمساواة والنظام والوحدة عن حياة أغلب المسلمين¹. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، فالحضارات الإسلامية وغيرها قامت على أربعة مقومات هي: المقوم الاقتصادي، والمقوم السياسي، والمقوم الأخلاقي، والمقوم الثقافي²، وهي إنسانية الإنسان³، وهي التي تُحيي بين الإنسان وأخيه أصرة التعاون الحقيقي البناء، وتنقله من ساحة العلم إلى نطاق العمل به ثم إلى اتباع الوجه الأسلم في الاستفادة من ذلك العمل، ومن ثم فإن التخلف الذي حاق بأممتنا العربية والإسلامية، يعود إلى أنها لم تعد تمتلك أخلاقاً اجتماعية ينهض عليها بنیان التقدم الحضاري⁴.

سابعاً: امتلاك الحسّ النقدي ومشاعر المسؤولية: لو تأملنا قصة أبي الخليفة آدم عليه الصلاة والسلام في الجنة وبحثنا عن عوامل تفوقه على إبليس؛ لوجدنا أن واحداً من أهمها كان أنه عندما أخطأ تحمّل المسؤولية فاعترف بخطئه مع زوجته ومارسا التوبة أو ما يسمى اليوم بالنقد الذاتي. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، بينما هرب إبليس نحو العوامل الخارجية والمنهج التبيري: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَتَيْنَا لَأُذِيقَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَأَلْعُوبِينَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39]، ولذا فإن نصوص ديننا تدفع المؤمن نحو مراقبة ذاته ونفسه ومحاسبتها. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]، واتهام نفسه في كل إخفاق أو سقوط يحصل لها، وتحذيرها من الوقوع في حبال المنهج التبيري، ودعته للاستمسك بحبال المسؤولية، وممارسة الرقابة الصارمة على الذات، والذهاب نحو الاستغفار والتوبة كلما حدث قصور أو تقصير. وإن نظرة متأنية لطاقة النقد في أممتنا أفراداً وجماعات؛ ستوضح لنا بأن الطاقة تعاني من سوء استخدام مما أوصل كثيرين منا إلى تبني مشاعر المؤامرة وتخليص نفسه من المسؤولية، ولا شك أن مثل هذا الوضع يوجد مناهجاً مناسبة للقعود عن العمل، ويخلق أرضية خصبة لتراكم الأخطاء، وصولاً إلى اقتراف الخطايا دون شعور بالمسؤولية أو معاناة من تأنيب الضمير! وإن أهمية النقد الذاتي تكمن في أنه يُقنع أصحابه بأنهم من صنعوا المشكلة، وأنهم وحدهم من سيحلونها⁵؛ فالنقد يعيد ترتيب الأشياء وفق طبيعتها السننية، حيث يربط السبب بالنتيجة، ويضع البذرة قبل الثمرة، والغاية قبل الوسيلة، والفكر قبل الفعل، والعقل قبل القلب، والتصور قبل التصرف، ومن ثماره أنه يساعد المرء على معرفة قدر ذاته كما هي بدون تعظيم أو تحقير، ويُنمي نقاط قوته، ويوظفها لصالح مشروعه النهضوي،

1 ينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، الشباب بين الأمية الفكرية والمسؤولية الاجتماعية، ص 29 – 32.

2 ينظر: د. الشريف، أحمد إبراهيم، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص 53 – 68.

3 ينظر: ابن عاشور، محمد الفاضل، ضبط وتقديم: عمر عبيد حسنة، روح الحضارة الإسلامية، ص 1.

4 ينظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 201، وينظر: د. السامرائي، نعمان عبد الرزاق صالح، نحن والحضارة والشهود، ج2، ص 120 – 146.

5 ينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، التفكير الموضوعي في الإسلام، ص 133 – 154.

ويمعنه من الإصابة بالضآلة وعقدة النقص، وفي ذات الوقت فإنه بمعرفته لنقاط ضعفه يقويها، ويتجنب الوقوع في مهوي الغرور، وأن يأتيه عدوه من قبلها فيمارس رقابة صارمة عليها.

ثامناً: البحث عن الحقيقة والاستفادة من كل نفع: من المعلوم أن الفكر الإسلامي يث على التفاعل الحضاري مع الحضارات الأخرى، من خلال ثلاثة أهداف أساسية، وهي: نشر رسالة الإسلام، والاستفادة من تجارب الآخرين، والرد على الانحرافات الموجودة في الحضارات الأخرى¹، كما أن أهم المقومات التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص هي التوحيد، والعلم، والانفتاح²، حيث اعتبرت النبوات دليلاً ربانياً في بناء الحضارات، وعَدَّت آدم عليه الصلاة والسلام المؤسس الأول للحضارة والعمران، وذهبت إلى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو مجدد البعث الحضاري³. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ اقْتَدَى﴾ [الأنعام: 90]، وقد لُوْحِظَ أن امتزاج الثقافة الإسلامية بالثقافات الهندية، والفارسية، واليونانية هو أحد معالم الحضارة الإسلامية⁴، وأن الاقتباس في ذلك لا بد أن يتدرج على ثلاث مراحل: التكريس، والاستيعاب، والإبداع⁵، وهو ليس عملية منفصلة؛ وإنما هو عملية منظمة لا يُقبل أن يتم عبر عملية تلفيقية، وإنما عبر عملية منهجية صارمة⁶، فوجب الحث على استنبات التقنية وتنميتها، وعلى الاستفادة من تجارب الأمم التي ردمت الفجوة بينها وبين التقنية.

تاسعاً: الإيمان بأن الأفضل يكمن في رَحْمِ المستقبل: لقد زخر القرآن الكريم والسنة النبوية بنصوص الأمل والبشارة لا ليتوقف الناس عن معاقره الأسباب، ولكن ليهتروا شجرة العمل حتى تُساقط عليهم رُطَب الصالحات. قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6]، واحتوى القرآن الكريم والسنة النبوية على نصوص النذارة لا ليبأس الناس، ولكن لينتبهوا من الوقوع في الحُفْر، وليأخذوا حذرهم من الفتن، والأعداء الذين لا يزالون يتربصون بهم الدوائر، ثم إن استشراق المستقبل وإدراك المآلات له تأثير إيجابي على الحاضر والمستقبل، فهو يساعد على هندسة الحاضر، ويشعل روح الإرادة ويُندكي شُعلة التصميم، ويعين على تجاوز العقبات؛ ويمنح المرء القدرة على تحويل التحديات إلى فُرص، وتحويل المحن إلى منح، ويقوم بتجسير المسافة بين الأفكار والأفعال⁷، ومن المشاهد أن إيقاعات العصر أصبحت

1 يوسف، عبد الولي محمد، ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وأدواره التربوية، ص 52 - 59.

2 د. رحائم، سعاد، الحضارة الإسلامية جذور وامتدادات، ص 29 - 70.

3 المصدر السابق، ص 71 - 116.

4 ينظر: د. الشكعة، مصطفى محمد، معالم الحضارة الإسلامية، ص 125 - 146.

5 د. سفر، محمود محمد، دراسة في البناء الحضاري (محنة المسلم مع حضارة عصره)، ص 75 - 99.

6 د. أحمد، محسن عبد الحميد، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري، ص 34 - 37، وينظر: يوسف، عبد الولي محمد، ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وأدواره التربوية، ص 131 - 192.

7 ينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، بوارق الفكر، ص 54 - 60، وينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، أمطار الفكر، ص 4 - 9، وينظر: د. البنا، فؤاد عبد الرحمن محمد، أمطار الفكر، ص 236.

سريعة مما يجعل التغيير حتمياً، حيث تتسابق مجتمعات العالم على حجز مكان لها في ناصية المستقبل¹.

الخلاصة: لا يمكن للشخصية المسلمة أن تساهم في صناعة الحضارة المعاصرة ما لم تُعد إلى تدبر القرآن الكريم الذي يُرسخ الغاية من خلق الإنسان، كما أن الزمن هو رأسمال الحضارة، وعلى الإنسان أن يملأه بالخير قبل أن يملأه غيره بالشر، كما أن الخلق الحسن والنقد الذاتي والمسؤولية تمثل مفاتيح التغيير الحقيقي، وإصلاح الواقع، وبلوغ الكمال البشري الممكن، ولا بد من ضوابط تربوية واضحة لاستمرار التفاعل الحضاري، أهمها: ترتيب الأولويات، واحترام التخصص، واستشراف المستقبل، مع الحذر من مصادمة النصوص أو الاقتباس الأعمى.

المطلب الثاني: المقاصد الإسلامية الأساسية ودورها في بناء الحضارات وال عمران

لقد اعتنى القرآن الكريم ببناء الحضارة وازدهار العمران؛ لأنه كتاب كل زمانٍ ومكانٍ، ودستور الله تعالى إلى الإنسانية كلها؛ كما تضمن الوحي الإلهي، وجميع أساسياته، فمن خلاله تستطيع الإنسانية الحصول على الهداية والنور والرحمة، والتحلي بجميع الفضائل، والتخلي عن كل الرذائل، بل لا تسمح بالانحرافات الحضارية التي تسمي مدمرة للإنسان والبيئة والكون، بل تعمل على الاستفادة من مسخرات الأرض والسموات، وإحياء الأرض، وتنمية البيئة، والعدالة في التوزيع، وتحقيق السلام العالمي، ووضع الإنسان الصالح الكفء الأمين القوي القادر بمهمة الاستخلاف، والانتهاض في إعمار الكون، وبناء الحضارة؛ بيد أن الإنسان الطالح الفاسد الفاقد لعنصر التزكية لا يمكن أن يحقق تنمية شاملة، ولا قاصرة فضلاً عن تحقيق العمران الإنساني والكوني.

وبناءً على ما سبق، يمكن إبراز مقاصد القرآن الإسلامية والأساسية، ودورها في بناء الحضارات

والعمران من خلال المقاصد التالية:

1- مقصد التوحيد ودوره في بناء الحضارة والعمران: يعد التوحيد من أولى المقاصد الرئيسة في القرآن الكريم، فهو الغاية الكبرى، والمحور الأساسي، والركن الرّصين، وهو أمّ مقاصد القرآن العظيم، لأنه وسيلة فعالة لتجديد الدين في المجتمع، ومقصد قرآني بالأدلة الفطرية، والمنطق العقلي. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61] ، فجميع الموجودات من الذرات إلى المجرات كل منها برهان ساطع على وجود الله سبحانه وتعالى، وهو الواجب الوجود، والقدير المطلق، وكل سلاله في السلاسل الموجودة في العالم حجة قاطعة على وحدانيته. قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22] ، فدور التوحيد وموقعه في بناء الحضارة والعمران مقصد أساسي

1 ينظر: الميلاد، زكي عبد الله أحمد، المسألة الحضارية: كيف نبتر مستقبلنا في عالم متغير، ص 101 - 137، وينظر: يوسف، عبد الولي محمد، ضوابط التفاعل الحضاري وسائله وأدواره التربوية، ص 182 - 192، وينظر: النعيري، محمد بن أحمد، أسس دراسة المستقبل في المنظور الإسلامي، ص 133 - 174.

الإجابة إلى الله تعالى، ويستنهض الضمير الديني من حيث العقل، والحس، والمشاعر، كما يعد توطئة لتأسيس الشخصية الإنسانية المسلمة، ومقدمة في بناء الحضارة، وعمران الكون، وتحويل عقيدة البعث إلى سلوك إيجابي يؤثر في واقع الحياة، وطاقة فعالة دعوية ضخمة يجب استثمارها في إحياء الإيمان في المسلمين، ولا سيما عندما يدبُّ الوهن والضعف في صفوف المسلمين.

4- مقصد العدل ودوره في بناء الحضارة والعمران: إن العدل أصل أصيل في القرآن الكريم وديننا، وهو أساس تقدم الشعوب، وازدهار الحضارات، وأُسُّ عمران الأرض، وبدونه يختل الكون، وتنهيار الحضارات، وتسقط المدن، وبدونه لا حديث عن بناء الحضارة والعمران، فهذا المقصد مبثوث في السور القرآنية كلها، بل في جميع آياتها، فمن الآيات على سبيل الإجمال لا التفصيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90] ، والعدل خصيصة ثابتة للنبين الحضاري الإسلامي الشامل للكيان السياسي، والجهاز الإداري، والرصيد الأخلاقي، فما عليك إلا التعمق في استجلاء تلك الخصيصة الحضارية ناظرًا ومقارنًا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

المطلب الثالث: مجالات الحضارات القرآنية

أولاً: العلاقات الاجتماعية والاقتصادية: كانت البشرية قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم تعيش في ظلمات كثيرة، وتتخبط في الجهل، والوثنية، وانتشار المفساد، والشور، والمساوي الأخلاقية، وشمل الفساد كل بقاع الأرض، ثم شاء الله أن يرسل نورًا يزيل به ما على الأرض من ظلمة، فأشرقت شمس الإسلام، وتغيرت الموازين، ودبت الحياة في العالم، وأقام الإسلام مجتمعًا متكاملًا، قائمًا على الأخوة ونفي الطبقية، فبنى الفرد المسلم الصالح، فكان أساسًا لبناء المجتمع المسلم الصالح المترابط الذي يسير على منهج الله سبحانه وتعالى، فأذهلت تلك الأسس العالمية للمساواة بين الخلق في شريعة الإسلام مفكرين وعلماء كثيرين، فهذا ر.ل. ميليمبا¹ ، يقول: "إن مبدأ الأخوة الإسلامية الذي يضم تحت جناحه كافة البشر بصرف النظر عن اللون والجنس.. هو المبدأ الذي جعل الإسلام الدين الوحيد القادر على تطبيق الأخوة في حيز الواقع لا في المجال النظري فحسب؛ فالمسلمون في جميع أنحاء العالم يعرفون أنهم جميعًا إخوة في الله"، وتقول **ديبورا بوتز**² : "إن الإسلام نظام عالمي وديني كوني جاء لجميع الناس في كل العصور، ولم يحدث أن أقرّ الإسلام أية تفرقة بسبب الوقت، أو الوطن، أو الثقافة، أو الطبقة،

1 ر.ل. ميليمبا: هو رئيس القسم الإسلامي في أحد المتاحف الهولندية بمدينة أمستردام. أشار في أحد تصريحاته إلى أن مبدأ الأخوة الإسلامية يضم تحت جناحه كافة البشر، بصرف النظر عن اللون والجنس، معتبرًا أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على تطبيق هذا المبدأ في الواقع، وليس فقط على المستوى النظري.

2 ديبورا بوتز D. Potter: ولدت عام 1954م، بمدينة ترافيز، في ولاية متشيغان الأمريكية، وتخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان، اعتنقت الإسلام عام 1980م، بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة من دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكرًا كان أم أنثى. ينظر: الدكتور: عماد الدين خليل، قالوا عن القرآن، ص 8.

فكل مؤمن بالحقيقة مسلم يتمتع بالأخوة الإسلامية مع كافة الناس في كل عصر ومصر، هذا هو سر قوة الإسلام¹.

وأما الجانب الاقتصادي فيعتبر من جملة الأركان المهمة والأساسية في المجتمع، وهو من الأعمدة الأساسية للحضارة، حيث يدفع الحضارة إلى طريق الصعود، ويمدّها بأسباب الحياة، متحكّمًا في السلطان، والقوة، ويحرك الحضارات نحو القمة، ويردي بأخرى إلى قاع الهاوية، كما أنه يُعتبر عنصر استقرار للحضارة. قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۗ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: 3 - 4] ، فالنظرة إلى الاقتصاد في الحضارة، كمقوم من مقوماتها، لا تختلف عن سائر المقومات، في تفرعها عن الإيمان بالله تعالى، وابتناؤها من التصور الاعتقادي الصحيح. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96] ، كما أن التعثر الحضاري، والتخبط في المسيرة الحضارية، له صلة كبرى بالمناهج الاقتصادية التي تبني عليها الحضارة صروحها؛ فإذا تبنت الحضارة الحقّة منهجًا اقتصاديًا لا يتفق مع عقيدتها، ولا ينبثق من تصورها الاعتقادي؛ فإنّ هذا التخبط يحدث صورةً مُشوّهةً لتلك الحضارة؛ سببها مناجها الاقتصادي. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آفَاقُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66] ، فالإقتصاد ليس قضية إنشاء بنك، وتشديد مصانع فحسب، بل هو قبل ذلك تشييد الإنسان، وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات² ، وهو في الحضارة الإسلامية مرتبط بالحلال، والحرام، وقد وسّعت الشريعة أبواب المعاملات المالية وجعلت الأصل في العقود الإباحة، فالإقتصاد المزدهر ليس ذاك الذي تنتفع من جناه طبقة واحدة في المجتمع، ولا ذاك الذي يضحّ المال في جيوب المتخمين المترفين. قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: 7]³ ، بل الذي يراعي العدل في التوزيع، ويحقق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع؛ كي لا يتحول إلى وسيلة لاستعباد البشر، ولا سببًا من أسباب الكراهية، والبغضاء، والحقد بين فئات المجتمع.

ثانيًا: تنظيم العلاقات الدولية والتشريع والحكم: إنّ العلاقات الدولية تحتكم في التصور الإسلامي إلى مبادئ وقيم ثابتة في إطار احترام التعدّد الثقافي والسياسي، وتقارب الشعوب وتعارفها. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] ، ولأهمية الحكم في الإسلام فقد اهتم الإسلام ببيان ما على الحاكم والمحكوم، فحذر الحاكم من اتباع الهوى وشهوات

1 ينظر: الشهود، علي بن نايف، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، ج5، ص 261، وينظر: مجيد خدوري، مفهوم العدل في الإسلام، ص 131، وينظر: د. سليمان، حمزة حسن، أسس الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، ص 32 - 35.

2 ابن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الخضر، ترجمة: عبد الصبور شاهين، المسلم في عالم الاقتصاد، ج1، ص 42.

3 ينظر: بدوي، عمار توفيق، مقومات الحضارة، وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، ص 68 - 72.

النفس. قال تعالى: ﴿ فَأَحْكُرَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: 26] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِن أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذَتْهُمُ أَنَّ يُقْسُواكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: 49] ؛ كما حذر سبحانه وتعالى المحكوم من العصيان دون سبب مقبول شرعاً فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: 59] ، فالحكم الإسلامي له أسسه، وقوانينه الواضحة المستمدة من القرآن الكريم الذي حرص فيه على أن يسود العدل، والحذر من الظلم وعواقبه بين جميع فئات المجتمع¹.

فالإسلام قدم للمجتمع البشري أسساً للحياة، تكفل السلامة لهذا المجتمع، وإن اختلفت عقائد الدول وأديانها؛ بتنظيم التعاون بين الأمم في كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، والتخفيف من ويلات الحروب، وتشريع نظام المعاهدات، والسفراء، وتأمين الرسل المبعوثين إلى الدول الأخرى، وكتب رسائل الدعوة لهذه الدول؛ ووجود السلطة القضائية المستقلة العادلة النزيهة التي تعتبر أكبر الضمانات لمحكمة تتوافر لها عوامل الحيطة والنزاهة والاستقلال.

المبحث الرابع: نماذج من القيم الأخلاقية في تطور الحضارات دعا لها ديننا الحنيف

المطلب الأول: الأخلاق في القرآن ودورها في بناء المجتمعات المستقرة

الأخلاق ركيزة من ركائز الحضارة، وهي الروح التي تسري في عروقها؛ فتجمل صورها، ولا يعلق بذاكرة الزمان منها سوى تلك السمائل الحميدة، أثبتتها القرآن الكريم والسنة النبوية، ففي القرآن الكريم قال الله تعالى واصفاً نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه متمثل لذلك: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4] ، وفي السنة النبوية جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»² ، كما يُعدُّ القرآن الكريم كنز الأخلاق، ومستودع جواهرها، ومبعث فضائلها، ومحاسن خصالها، ويضرب مثلًا في الأخلاق التي غارت جذورها في القلوب؛ فبَسَقَتْ مورقةً في الحياة، بتلك القصة الفريدة في التأخي ما بين المهاجرين والأنصار، وهم يسرون جنبًا إلى جنب في طريق الكفاح الحضاري. فحينما هاجرت قوافل المسلمين من نيران ظلم الحكم المستبد في مكة، إلى المدينة المنورة؛ استقبلتهم يثرب المؤمنة، حُبًّا، وطواعيةً، تفتح لهم أذرعها، وتجنزئ لقمة العيش، وصرَّة المال، وتفكَّ عَقْدَ ما زاد عن زوجة من الزوجات، للمهاجر المؤمن، وتحتمل خصاصة النفس، وألم الفاقة؛ إيثارًا للأخ الجديد؛ أخ العقيدة، والإيمان، وليس أخ النسب، والتراب، ولا ابن القبيلة والعشيرة، ولجلالة هذه الصورة وجمالها فقد خلدها القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

1 ينظر: د. سليمان، حمزة حسن، أسس الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، ص 38 - 40.

2 الأصبحي المدني، مالك بن أنس بن مالك بن عامر، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الموطأ، باختلاف يسر «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ»، كتاب: حسن الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم الحديث 3357، ج5، ص 1330، والشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، ج14، ص 513، مسند المكثرين من الصحابة، رقم الحديث 8952.

من قَبْلِهِمْ يُجِئُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِفْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿9﴾ [الحشر: 9]، ومن عرين المدينة المنورة؛ انطلقت رحلة البناء الحضاري العالمي؛ فكانت اللبنة تُصهر وتؤسس على العقيدة، وتصورها الصحيح، ومنه الأخلاق.

فالأخلاق: "علمٌ موضوعه تنظيم النشاط الإنساني"¹، وكَيْمَا نشرف على هذا الكنز فلا بدّ من نظرة عميقة في الأخلاق التي تنشئ الحضارة، ويحذو الركبان بحاسنها، ذلك أنّ من الناس من فهم الأخلاق فهماً مبتوراً عن جواهرها ورسالتها، وحصرها في زاوية الأخلاق العملية أو الفردية، وغض الطرف عن شموليتها كما نظر إليها القرآن الكريم، وغرس معانيها في صدور المؤمنين بناة الحضارة، ولا يعني ذلك التقليل من أهمية الأخلاق العملية أو الفردية في حلبة العمل لإنشاء الحضارة، بيد أنّ من انتشى من تلك الروح السارية في الحضارة يدرك مرامي الأخلاق، وموقعها الرصين فيها فهي جدول رقرق من نبع الإيمان الصافي، الذي يعزز مكائنها، وهي ثمرة حلوة من شجرة الإيمان، وشعبة منبتقة من أصله².

والباحثون الغواصون في أمر الأخلاق عدّوا منها نظريات كلية إجمالية كما هو الحال في فقه الشريعة، وذكروا في الوقت نفسه فروعاً في الأخلاق هي من باب الأخلاق العملية أو الفردية، فالعملية: تستوعب كل مناحي الحياة، وألوان السلوك البشري، وجوانب النشاط الإنساني في شتى الصُّعُد، في الاقتصاد، والسياسة، والحرب، والسلم، والعداوة، والمحبة، والفرد، والجماعة، والرعية، والحاكم، والأسرة، وشتى أشكال النشاط الإنساني، والفردية: تتمثل في ذات الأشخاص أنفسهم، وهي تعكس مدى انضباطهم وتمسكهم بها.

فالمسألة الشريفة إنما هي: ياقوتة في جِيد البناء الرسالي، وهذه الياقوتة هي الأخلاق، وقد هبّ المجتمع؛ لينتج حضارة رائعة منذ أن بدأ نشاطه يستقطب حوله مجموعة من القيم الخلقية³.

المطلب الثاني: الوحدة والتعاون كأسباب للتقدم الحضاري

لقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام مجزأة متفرقة متعادية فيما بينها، وكانت على شفا حفرة من النار بالشرك والظلم والعدوان، تعيش أزمة حضارية تعيق تقدمها، وتقوض دعائمها، فجاء الإسلام وأنكر النزعة الاستغلالية، وقاوم السلبية، ونبذ الأثرة والأنانية، والتهافت المسعور على التقاط جهد الآخرين، وأن يعيش الفرد على أنقاض الآخرين، يبني قوته على ضعفهم، وغناه على فقرهم، ومجده على ذلهم، وبين أن الناس جميعاً في حق الحياة والعمل والكرامة سواء؛ أَلَفَ اللهُ بين قلوبهم أفراداً وجماعات فأصبحوا بنعمته إخواناً.

1 دراز، محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، ص 69.

2 ينظر: بدوي، عمار توفيق، مقومات الحضارة، وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، ص 53.

3 ينظر: ابن نبي، مالك بن الحاج عمر بن الحضرمي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ميلاد مجتمع، ص 49 - 50.

لقد أشار القرآن الكريم إلى الوحدة والتعاون والتآلف المجتمعي، وجعل ذلك من الضروريات الأصلية التي لا تنهض الحضارات إلا به، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِرَبِّكَ فَلَوْ بِهِمْ وَلَكَِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63] ، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2] ، فوجود الوحدة والتعاون والتآلف في أي أمة سينتج استقرارًا وتطورًا ينهض بالأمة، ويوصلها إلى الرقي الحضاري المرموق؛ لأن الناس يحتاج بعضهم لبعض، ويكمل بعضهم بعضًا، والجماعة تسدُّ النقص الموجود في الأفراد فيوفرون الأوقات، ويكون العمل متفانيًا. قال ابن خلدون: "إن العمران لا يقوم إلا على التعاون؛ حيث إن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضًا لما في طبيعة العمران من التعاون، وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه، ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته"¹.

وبالجمله فالوحدة والتعاون سببان من أسباب التقدم الحضاري لأهما يعززان العلاقات الاجتماعية، ويساهمان في تحقيق الأهداف المشتركة، ويظهران الاتحاد والتناصر، ويسهمان في التنمية، ويعززان الانتماء، ويشجعان جميع جوانب الحياة المجتمعية، فيغدوان حُلُومًا للأمة.

المطلب الثالث: العدل والمساواة كأساس للاستقرار والنهضة

العدل والمساواة قوام الحضارة، وسبب من أسباب بقائها واستقرارها، ولا يأفل نجم حضارة العدل أساسها، ومبنى أعمالها، ومرجع نظرتها لرعيتهما وللآخرين؛ ولذا فقد تذوق معسول العدل والمساواة كل من انطوى تحت راية الإسلام وعاش في ظل أثره الحضاري². يتبوان مساحة شاسعة في القواعد الحاملة لبناته الضخمة، كيف لا وهما مقوم من مقومات الحضارة، تخرج من مدرستهما أحرار الرجال أعزة تشمخ هاماتهم للسماء، لا يخشون ظلمًا، تحفظ كرامتهم، وتُصان حرماهم، فتنتلق قوافلهم في ركب البناء والعطاء، وتندفق مواهبهم بأريحية وحيوية، ينقي العدل والمساواة سرائر ضمائرهم، ويسلّان سخيمة قلوبهم، ويطمئنناهم بما لهم وما عليهم. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

وللعدل والمساواة أهميتهما البالغة في حركة الحضارة ودوران عجلتها، والقرآن الكريم وهو يشق طريقه في النفس والمجتمع لإرساء هذا المفهوم واجه صعوبات جمة وخطيرة، كادت أن تصل إلى نزاع مع ملوك رغبوا في الإسلام ولم يفقهوا درس العدل والمساواة الذي جاء به هذا الدين. فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ

1 ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص 472.

2 ينظر: بدوي، عمار توفيق، مقومات الحضارة، وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، ص 46 - 50.

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»¹، كما أن الباحث في مقومات الحضارة يزداد إيماناً كلما أشرقت شمس مبادئ الإسلام وكشفت عن روعتها وعظمتها في لُجَّة الحياة، فالحضارات الراشدة هي التي أولت العدل والمساواة أهمية في تأسيسها؛ فثبت عليهما، وما شابتهما بسببهما؛ لأنه أمر رباني، وهو مسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحور رسالتهم للبشرية. قال الله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿[الحديد: 25]﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90] . لقد أرست الآيات الكريمة العدل والمساواة قيمة مجتمعية لتفجير طاقات الإنسان الإبداعية في تشييد الحضارة، وتحريك عجلة الحياة، وتعزيز الانتماء للمجتمع والأمة، والعدل والمساواة قاعدة من قواعد الاستقرار، وسبب من أسباب الديمومة والازدهار، وهما من عهود الشباب الريان للحضارة، وسبب تمتعها بالنضارة، وذلك بالتطلع لعدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة؛ فتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان².

إن العدل والمساواة حضارة صنعها الإيمان بالله، وأي حضارة مهما زهت مظاهرها وتبرجت أشكالها إن لم تنشر ألويتها ولم تقم على العدل والمساواة فسيلعنها الناس؛ فما فائدة طلاء خلّاب، وفعل كوحوش الغاب.

الخاتمة

إنَّ التقدم الحضاري الحقيقي لا يرتبط بالتطور العلمي أو التكنولوجي فحسب، بل يقوم على تحقيق التوازن الشامل لكل جوانب الحياة، وهذا ما اهتم به القرآن الكريم وشدد عليه في توجيهه للبشرية؛ تأسيساً على قيم أخلاقية وعلمية يقودها الوحي نحو بناء حضارة متكاملة مستدامة. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، وهي كالتالي:

أولاً: النتائج

1. النتائج المفاهيمية:

1- يتضح أن القرآن الكريم هو أساس الحضارة ومرشدها، فلا حضارة قائمة بمعزل عن هديه، فهو الركيزة الأولى لأي فهم صحيح للتقدم الحضاري.

2- الحضارة الإسلامية منذ نشأتها جمعت المقومات الأساسية لحضارة متكاملة شاملة، عبر مجتمع واضح

1 البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، رقم الحديث 3475، ج4، ص 175.

2 الماوردي، أبو الحسين علي بن محمد بن حبيب، أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، ص 153.

المعلم، له نظرتة الخاصة إلى الحياة، ونظامه التشريعي الكامل، ونهجه في تنظيم العلاقات بين الأفراد.

3- التقدم الحضاري لم يكن نتاج التقاليد أو الفكر الموروث، بل هو نتيجة الحدث التاريخي الفريد المتمثل في تنزيل القرآن الكريم.

4- تشكل الحضارة الإسلامية منظومة ثقافية واسعة تغطي مختلف نواحي الحياة، مفتاحها الوحي من القرآن والسنة النبوية، ويبرز القرآن أسباب التقدم والأفول عبر العصور؛ لاستخلاص العبر والعمل بها للنهوض الحضاري وتعمير الأرض بما يرضي الله.

2. النتائج السننية:

1- الإيمان بالله تعالى هو المقوم الرئيس لاستمرارية الحضارة، وأي انحراف عن العقيدة الصحيحة يؤدي إلى تفكك أركانها.

2- الأخلاق ركيزة الحضارة وروحها، وهي نابعة من الإيمان بالله.

3- الوحدة والتعاون والتناصح بين أفراد المجتمع من أهم العوامل التي تساعد الحضارة على البقاء والاستمرار.

4- العدل قوام الحضارات، وأساس بقائها مزدهرة، في حين يؤدي الظلم والاستكبار والطغيان وغرور القوة إلى انهارها وتفككها، مهما بلغت من مظاهر القوة والازدهار.

3. النتائج التطبيقية: ينبثق من القرآن والسنة مفتاح الأمل في تقدم الحضارة الإسلامية، من خلال التمسك بالقيم الأساسية (الإيمان، الأخلاق، العدل، التعاون)، وهي توجهات يمكن ترجمتها إلى سياسات عملية تشمل مجالات: التعليم، والإعلام، والأسرة، والاقتصاد.

ثانياً: التوصيات

1- انتهاز الباحثين في العلوم الإسلامية بإجراء مزيد من الدراسات المعمقة في مفهوم التقدم الحضاري من خلال القرآن الكريم.

2- اتخاذ جميع الوسائل المتاحة لنشر مبادئ التقدم الحضاري الإسلامي بين أوساط المسلمين وغيرهم من خلال هدي الكتاب والسنة.

3- حث المتخصصين في العلم الشرعي على الكتابة في شؤون الحضارة والإقبال على دراسة الحضارات الأخرى، وعدم الزهد في هذا العلم الهام الذي غدا وسيلة لغزونا الفكري والثقافي.

4- اختيار نماذج لحضارات ذكرها القرآن الكريم وتحليلها وفق المنظور القرآني، ودراستها دراسةً تحليليةً معمقةً لاستنباط السنن الكونية فيها.

(المصادر والمراجع) REFERENCES

- [1] [1] The Qur'ān.
- [2] [2] Al-Bukhārī, M. b. Ismā'īl. (2001). Ṣaḥīḥ al-Bukhārī (M. Z. b. Nāṣir al-Nāṣir, Ed.). Beirut: Dār Ṭawq al-Najāh.
- [3] [3] Muslim b. al-Ḥajjāj. (1955). Ṣaḥīḥ Muslim (M. F. 'Abd al-Bāqī, Ed.). Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-'Arabī.
- [4] [4] Ibn Ḥanbal, A. (2001). Musnad al-Imām Aḥmad ibn Ḥanbal (Shu'ayb al-Arnā'ūṭ et al., Eds.). Beirut: Mu'assasat al-Risālah.
- [5] [5] Mālik b. Anas. (2004). Al-Muwaṭṭa' (M. M. al-A'zamī, Ed.). Abu Dhabi: Mu'assasat Zāyid ibn Sulṭān Āl Nahyān.
- [6] [6] Al-Tirmidhī, M. b. 'Īsā. (1998). Al-Jāmi' al-Kabīr (Sunan al-Tirmidhī) (B. 'A. Ma'rūf, Ed.). Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī.
- [7] [7] Abū Ghuddah, 'A. al-Fattāḥ. (n.d.). Qīmat al-zaman 'inda al-'ulamā'. Aleppo: Maktab al-Maṭbū'āt al-Islāmiyyah.
- [8] [8] Al-Ajmi, A. al-Y. A. Z. (2006). Al-ḥaḍārah al-Islāmiyyah: Wajh jadīd. Cairo: Dār al-Salām.
- [9] [9] Al-Banna, F. 'A. al-Raḥmān. (2011). Al-fikr al-mawḍū'ī fī al-Islām. Doha: Wizārat al-Awqāf (Silsilat Kitāb al-Ummah 137).
- [10] [10] Al-Banna, F. 'A. al-Raḥmān. (2014). Qaḍāyā fī al-thaqāfah al-Islāmiyyah. Aden: Dār al-Ṭibā'ah wa al-Nashr.
- [11] [11] Al-Būṭī, M. S. R. (1992). Manhaj al-ḥaḍārah al-insāniyyah fī al-Qur'ān al-karīm. Damascus: Dār al-Fikr.
- [12] [12] Al-Māwardī, 'A. b. M. (1981). Adab al-dunyā wa al-dīn. Beirut: Dār Iqrā'.
- [13] [13] Al-Milād, Z. 'A. (1999). Su'āl al-ḥaḍārah. Beirut: Al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī.
- [14] [14] Al-Na'īmī, 'A. M. (2014). Ru'yah Islāmiyyah li-su'āl al-ḥaḍārah. Doha: Silsilat Kitāb al-Ummah 153.
- [15] [15] Al-Nā'irī, M. b. A. (2009). Uṣūl dirāsāt al-mustaqbal fī al-manzūr al-Islāmī. Damascus: Dār al-Fikr.
- [16] [16] Al-Nursī, B. al-Z. S. (2011). Al-kalimāt. Cairo: Sharikat Sözlür.
- [17] [17] Al-Nursī, B. al-Z. S. (2011). Al-lama'āt. Cairo: Sharikat Sözlür.

- [18] [18] Al-Qaradāwī, Y. (1993). Al-waqt fī ḥayāt al-Muslim. Damascus: Dār al-Muttaḥidah.
- [19] [19] Al-Qaradāwī, Y. (1996). Al-‘aql wa al-‘ilm fī al-Qur’ān al-karīm. Cairo: Maktabat Wahbah.
- [20] [20] Dirāz, M. ‘A. (1998). Dustūr al-akhlāq fī al-Qur’ān. Beirut: Mu’assasat al-Risālah.
- [21] [21] Ibn ‘Ashūr, M. al-F. (1992). Rūḥ al-ḥaḍārah al-Islāmiyyah. Virginia: IIIT.
- [22] [22] Ibn Khaldūn, ‘A. al-R. (1988). Kitāb al-‘ibar. Beirut: Dār al-Fikr.
- [23] [23] Ibn Manzūr, M. b. M. (n.d.). Lisān al-‘Arab. Beirut: Dār Ṣādir.
- [24] [24] Iqbal, M. (2000). Tajdīd al-fikr al-dīnī fī al-Islām. Cairo: Dār al-Hidāyah.
- [25] [25] Khaddūrī, M. (1998). The Islamic conception of justice. Damascus: Dār al-Ḥaṣād.
- [26] [26] Sharīf, A. I. (1981). Dirāsāt fī al-ḥaḍārah al-Islāmiyyah. Cairo: Dār al-Fikr al-‘Arabī.
- [27] [27] Shak‘ah, M. M. (2010). Al-ḥaḍārah al-Islāmiyyah: Māhiyyatuhā wa ‘aṭā’uhā. Riyadh: Maktabat al-Mutanabbī.
- [28] [28] ‘Ārif, N. M. (1994). Al-ḥaḍārah wa al-thaqāfah. Virginia: IIIT.
- [29] [29] ‘Ubayd, Ṭ. Kh. (2011). Al-ḥaḍārah al-‘Arabiyyah al-Islāmiyyah. Beirut: Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah.
- [30] [30] ‘Anān, M. ‘A. (2006). Ibn Khaldūn: Ḥayātuhu wa turāthuhu al-fikrī. Cairo: Dār al-Kutub al-Waṭaniyyah.
- [31] [31] Badawī, ‘A. T. (2005). ‘Anāṣir al-ḥaḍārah wa asbāb al-inḥiṭāt min khilāl al-Qur’ān al-karīm (Master’s thesis). An-Najah National University, Nablus.
- [32] [32] Al-Ash‘ab, Kh. Ḥ. (1979). Ibn Khaldūn and urban-regional planning. Majallat Kulliyat al-Ādāb, 26, 315–352.
- [33] [33] Al-Mazūrī, A. M. I. (2018). Maqāsid al-Qur’ān ‘inda al-Nursī wa dawruhā fī binā’ al-ḥaḍārah. Journal of Civilizational Studies, 9(18), 125–159.
- [34][34] Sulaymān, Ḥ. Ḥ. (2015). Foundations of human civilization in the Qur’ān. Journal of Qur’ānic Studies, Special Issue, 167–190.

TRANSLITERATION

a. Consonant

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
ء	‘	فَأْرُ	fārun
أ	(a,i,u)	أَحْكَام	aḥkām
ب	b	بَابٌ	bābun
ت	t	تَمْرٌ	tamr
ث	th	ثَلَاثٌ	thalātha
ج	j	جَبَلٌ	Jabal
ح	ḥ	حَدِيثٌ	ḥadīth
خ	kh	خَالِدٌ	khālid
د	d	دِينٌ	dīn
ذ	dh	مَذْهَبٌ	madhhab
ر	r	رَاهِبٌ	rāhib
ز	z	زَكِيٌّ	zakī
س	s	سَلَامٌ	salām
ش	sh	شَرْبٌ	sharaba
ص	ṣ	صَدْرٌ	ṣodrun
ض	ḍ	ضَارٌ	ḍār
ط	ṭ	طَهْرٌ	ṭahura
ظ	ẓ	ظَهْرٌ	ẓhohr
ع	‘	عَبْدٌ	‘abdun
غ	gh	غَيْبٌ	ghayb
ف	f	فَاتِحَةٌ	Fātihah
ق	q	قَبَسٌ	qabas
ك	k	كِتَابٌ	kitāb

ل	l	لَيْلٌ	layl
م	m	مُنِيرٌ	munīr
ن	n	نِقَابٌ	niqāb
و	w	وَعَدٌ	wa ^ʿ ada
هـ	h	هَدَفٌ	hadaf
ي	y	يُوسُفُ	Yūsuf

b. Short Vowel

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
اَ	a	كَتَبَ	kataba
اِ	i	عَلِمَ	ʿalima
اُ	u	عَلِبَ	ghuliba

c. Long Vowel

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
اَ ، اِ ، اِو	ā	عَالَمٌ ، فَتَى	ʿālam , fatā
اِي	ī	عَلِيمٌ ، دَاعِي	ʿalīm , dāʿī
اُو	ū	عُلُومٌ ، أُدْعُو	ʿulūm , ʿudʿū

d. Diphthong

Arabic	Latin	Example	
		Arabic	Latin
أَوْ	aw	أَوْلَادٌ	aulād
أَيَّ	ay	أَيَّامٌ	ayyam
إِيَّ	iy	إِيَّكَ	iyyāka